لعنة كالمنية ...

قصة بقلم ستيفان كليم
ترجمة عصام صفدي

اعتمد بابك(*) بكسل على مقبض معوله ، وتطلع الى بيته . واخذ يتأمل ، هذا بيتي ، ثم راح يفكر بتؤدة ـ وكأنه يقلب صفحات ألبوم صور قديمة ـ في كل الاماكن التي عاش فيها : كوخ والده ، ذي السقف المنخفض والجدران المتداعية ، في موطنه ، قرب كاتوبس ، والبيوت الرخيصة ذات الحجرات العديدة الباردة في بتسبرج وكلفلند ، واكواخ المعدنين ذات القرميد هنا في جولدسبره حيث كان يدفع مقابل النوم والطعام ، كان دائما يعيش مع عائلة ومع ذلك لم يكن عضوا فيها ، ومع انه لم يكن ابدا على انفراد تام فقد كان دوما وحيدا .

ومضى في تأمله ، لابد للرجل من بيت ـ وها هو البيت الان : ان له اساسا ملموسا ، واربعة جدران جميلة مستقيمة مصنوعة من الخشب الجيد ، وسقفا اسود ومدخنة حمراء ، ونوافذ في كل حائط تسمح للنور ان يدخل بحرية ، بل وحتى مدخل صغير فيه خمس درجات تؤدي الى ما ينبغي ان يكون ممرا حالما يشتري الحصى ويرصفه .

وعبس بابك . حالما يشتري الحصى .. هنالك اشياء كثيرة ينبغي شراؤها .لقد خطط البيت ، لا مرة واحدة كما يفعل الاخرون الذين لا يعني البيت بالنسبة لهم سوى مكان يقيمون فيه حين يسقط المطر ، لقد كان يفكر في بيته عندما كان ينحني امام وجه الفحم الاسود ويفتته، وعندما كان يجلس في بار مايك يحتسي البيرة طيلة الامسية ـ وعلى مر السنين ، كان البيت يتخذ له شكلا في مخيلته .

ولا بد من مطبخ أنيق ، واسلاك كهربائية مكسوة بغلاف ابيض ، ومغسلة براقة تجري فيها المياه الساخنة والباردة من حنفية لامعة . وبجوارها سينتصب براد كبير يفتح بطريقة ناعمة ، كمن يمص لسانه قبل وجبة دسمة ، وسيكون في البراد عدد من علب البيرة ندية لشدة برودتها ، وبيض ، وزبدة ، وثلاثة انواع مختلفة من السجق ، ودجاجة محمرة ، وبرتقال ، وكعكة مغطاة بطبقة من الشكولاته ، وستكون جدران المطبخ زرقاء فاتحة ، وعلى امتداد جوانب السقف سيرسم باقة من الزهور الحمراء ..

وسيكون هنالك حمام ، بدوش منفصل وكل اللوازم الاخرى . حسبه ما ناله من التعثر وهو في طريقه الى حمام خارجي لعين حيث كان الذباب الاخضر الكبير يلسع قفاه ، وحيث كان يبدو له أن رائحة قذرة ، وكأنها تنبعث من قاذورات ستة اشخاص او عشرة متراكمة نحو ثلاثة اشهر ، تدب تحت بشرته .

اما جدران غرفة النوم فستكون مغطاة بورق زهري اللون ، وفيها سرير كبير ناعم ، ومتسع ، وله اغطية بيضاء ووسادة من الريش ، وتحته سجادة كيلا تتالم تاليله عندما ينهض من فراشه ويضع قدميه على الارض الباردة القاسية .

واخيرا غرفة للجلوس ـ طاولة كبيرة وكراسي حتى يمكن ان يكون للمرء رفقة ، وكنبة منجدة عليها وسائد للضيفات ، يتكئن عليها ، خزانة تحتوي على الاطباق والاواني الزجاجية ، ومجموعة من الاثريات حدثه عن بيعها احد الباعة ، وصورتان مذهبتا الاطار على كل جائط .

كذا هو البيت الذي صممه . وفي بيت كهذا يمكن للمرء ان يأتي بامرأة دون ان يخجل . وفي بيت كهذا يمكن ان يقول لها : « هذا هو بيتي ـ هل تحبينه ؟ » واية امرأة لا تحبه ؟ واي فرق عندئذ ان لم يكن حسن المظهر ، وان لم يكن يستطيع الحديث متمكنا من لغة لم تتح له قط فرصة دراستها دراسة جيدة ، ولا فرق ان كان يرقص كالفيل وان كانت الاحاديث اللطيفة والنكات التي يقولها الاخرون بسهولة لا تجري قط على شفتيه ؟ لا فرق مطلقا .

وتنهد بابك . منذ سنوات ، ربما لم يكن هناك فرق . ولكنه الان اكبر سنا مما ينبغي . ما زال شعره اسود ، ليس فيه خيط رمادي ، ولكن بقية جسمه تقلصت ، لقد غار ثغره وعيناه ، وبرزت اذناه كأنهما اذنا جرة ، وتعرقت بشرته كلوح خشب قديم . ذراعاه فقط بقيتا قويتي العضلات مرنتين كعهده بهما دائما ، انهما الذراعان اللتان اقتطعتا الفحم من تلال بنسلفانيا ، طنا طنا ، كم من الاف الاطنان من الفحم ؟

ضغط بابك على مقبض معوله واوغل حده بعنف في ارضه . ان البيت بيت ، بامرأة او بدون امرأة . وهكذا قضى اربعين عاما حتى ادخر الثلاثة الاف دولار التي حسب انه يحتاجها ليبدأ البيت ! ولكن لديه على الاقل شيء يفخر به من كد حياته ـ انظر الى الاخرين ، يدفعون اجور اكواخهم البائسة لشركات الفحم ، وطابور من الاطفال ، يلتهمون كل فلس يكسبه الرجال في حياتهم ! وما كان ليحتاج أربعين عاما ، على كل حال ، لولا ان الازمة الاقتصادية اصابت البلاد وان النقود التي اودعها المصرف تلاشت فجاة . لقد كان عليه ان يبدأ من جديد . وصر نقوده ، دولارا فوق دولار ، في الجريدة ووضعها في حزام من صنع يدوي كان يحمله دائما حول معدته الضامرة . لقد كان يفضل ان يدفن معها تحت صخرة في الجبل على ان يثق بمصرف آخر !

ان الحزام فارغ الان ، ولكنه يملك البيت وقطعة الارض المشيد عليها. وابتسم بكبرياء متجهمة ، وشعر كأنه فاتح ، وكان فاتحا على نحو ما ، مع ان ما فتحه لم يكن ما حلم به .

كلا ، لم يكن ما حلم به مطلقا . وقلب بابك التراب بضربة اثر ضربة من معوله وغرز حده في الارض وكأنه يود ايذاءها لشر الحقته به .

وقد كانت الارض بداية المتاعب ، كان قد حسب كل شيء بدقة. وكم من ليلة سهرها في فراشه ، وقطعة من الورق مرتكزة على ركبتيه ، وجمع وطرح وشطب ثم جمع مرة اخرى ـ كم سيكلف هذا وذاك ، المواد والعمل ، ما الذي يستطيع به وحده ، ما الذي سيدفع مقابله للاخرين ، وكم .

(*) عنوان القصة في الاصل الانكليزي هو « بابك »

ولكن عندما تم حساب كل شيء واكتملت له الثلاثة الاف دولار، ارتفع سعر الارض ، والخشب ، والطوب ، والمسامير ، والاسلاك ، ومواد السقف ، والاجور ـ ارتفع سعرها كلها اكثر واكثر . لقد قال له مايك، وهو الذي يدير البار ، « انت مجنون يا بابك ، احرص على ما ادخرته . لسنا من ذلك النوع من الناس الذين يتمكنون من الملكية الحقيقية . ولكن ان تمسكت بما ادخرته فيكون عندك شيء يذكر . وان ساءت الاحوال فبوسعك ان تشرب لتنسى . »

لقد شتم مايك . كان يدرك انه ان لم يباشر ببناء البيت حينئذ ، فلن يبنيه قط ، وسيموت دون اي شيء ، بلا شيء يعتز به من حياته كلها . وعندما فكر بابك في ذلك ، شعر بخوف حقيقي ، خوف يقبع في تجويف معدته وكأنه شيء ذو اسنان يقرض امعاءه . وما كان مجرد خوف من حياة مضيعه ، كان خوفا من الشيخوخة تداهمه وهو يعيش في بيت تافه ، ربما في الغرفة الخلفية لبار مايك ، او ربما في ثقب اخر في الحائط ، ويزحف منقبضا . لقد رأى كثيرين من المسنين الاخرين : تلاشت قوتهم في الفحم ولم يكن من الذكاء او النظام او المقدرة على التوفير ما يجعلهم ينتزعون من الفحم شيئا لانفسهم .

لقد بنى البيت ، وعندما تم انفاق اخر دولار ، كان البيت جاهزا ومنتصبا ، بدون رهن ، وبدون دين ، كله له ، كله لبابك ، بيته ، ملكه!

وتراخت ابتسامة الفاتح وكادت تكون رقيقة . والتقط بابك المعول وتعثر في طريقه الى بيته . وفي اسفل السلم المؤدي الى المدخل ، القى المعول ومسح نعليه الملوثتين بالطين على قطعة من الخيش . ثم صعد الى المدخل . اخرج من جيبه مفتاحا واخذ يعالج القفل . لم يكن به حاجة لاقفال الباب ، فجيرانه طيبون ، وعلى كل ، فهو حر في ارضه. ولكنه كان يحب ان يقفل بيته ويفتحه حين يعود ، ليس الا . وما سبق ان كان له في حياته قط بيت يملك مفتاحه .

وانفتح الباب برفق على معضلاته ، ودخل بابك ، ولكن العبوس العميق الذي حل محل ابتسامته جعل وجهه مضحكا .

وفي المدخل الصغير ، العاري ، كانت الابواب المؤدية الى المطبخ وغرفة النوم وغرفة الجلوس مفتوحة ، وفي المطبخ كان موقد على الكيروسي وكرسي قديم عليه بعض الاطباق القذرة ، وسطل منبعج ممتلىء الان حتى منتصفه ببعض العلب الفارغة والاوراق الممزقة . وكانت غرفة نومه مؤثثة بسرير حديدي عليه فراش رقيق ، ووسادة عارية ، وغطاءان عسكريان قديمان ، وكانت غرفة الجلوس خالية الا من مجموعة من الاثريات مكومة على حافة النافذة ، ومن دراجة مسندة الى الحائط . ولم لا يستعمل ابن الجيران بيته كمرآب ؟

وجلس بابك على السرير ، جلس مستقيما تمام الاستقامة وارهف السمع .. ولكن لم يتزام اليه صوت ، لا اصوات ضيوف يضحكون او يتحدثون او يقرعون الكؤوس ، ولا صوت امرأة يدعوه للعشاء . ونظر بابك الى يديه المستريحتين على ركبتيه . ونظر الى اظافره المشققة ذات الحواف السود ، والى اصابعه العريضة ، المكتنزة والملتوية ، والى اثر الجرح الذي انساب ابيض اللون في ظهر يده اليمنى الاحمر . بهاتين اليدين بنى البيت ، ان فيهما قوة تكفي لحفر اطنان الفحم التي ستتحول الى أثاث ودائرة كهربائية ودوش ومقعد للتواليت . انه لم يئته باية حال ، انه في الخمسين من عمره فحسب، ولا توجد شعرة بيضاء في رأسه ـ

ودس يده تحت الوسادة وسحب قطعة من الورق المطبوع مهترئة من كثرة اللمس . كان التاريخ الذي عليها يشير الى اكثر من نصف عام مضى . لقد وردت فيها كلمة « اخطار ! » وتليها اسطر قليلة ، ثم اسمه مطبوع فيها ، وبعد ذلك اسطر قليلة اخرى ، وتوقيع متسرع .

انه لم يئته بحال من الاحوال ، لم ينته من بيته ، ولا من حياته . ماذا لو ادخلوا ، بالفعل ، الى المنجم آلة حمل جديدة ؟ الا يستطيع ان يتعلم كيف يديرها ؟ ام ترى لا يمكن ان يدعوه يحفر في مكان اخر ؟ هناك طبقات من الفحم تمتد عبر الجبل كله ، والشركة تملك الجبل برمته . اليس في وسعهم ان يجدوا له ركنا صغيرا واحدا تحت الجبل يعمل فيه ؟

« بابك ! مرحبا يا بابك ! »

لقد سره كثيرا ان يسمع صوتا ، اي صوت ، ولو صوت مايك الخشن الغليظ ، حتى انه تركه يستمر في النداء عدة مرات اخرى قبل ان يفتح باب البيت . كان مايك يجتاز الممر ، وجاكتته مفتوحة ، وعقدة ربطة عنقه مدلاة ، وبقعة من العرق على قميصه حيث ينتفخ عند الجزء العلوي من بنطلونه . وكان بعض خصلات شعره الاحمر ـ الرمادي تلتصق بشكل مضحك على جبهته المحمرة ، وهو ينزلق على وحل الممر والحفر . وكان الرجل الذي يتبعه يسير بانتباه ، ويتزن على البقع الاكثر جفافا ، ويقبض على شمسية ومحفظة بيد ، وقبعة ـ رمادية انيقة باليد الاخرى .

وعبس بابك . ان الغرباء ، وخاصة الحسني الهندام منهم ، يريبونه، وليس هناك ما يجعل مايك يغادر باره في هذا الوقت من النهار ، حين يكون من المحتمل ان يدخل الرجال لشرب البيرة بسرعة ، وهم عائدون من المناجم .

وعلى عتبات المدخل ، توقف كلا الرجلين .

وسعل مايك ومسح وجهه ، وقال ، « خطر لي ان آتي واري كيف حالك.» ولم يقل الغريب شيئا . لقد كان ينظر فحسب ، مقدرا .

ونادى بابك من فوق رأس مايك ، « ماذا تريد » ؟

وسأله الغريب « هل انت جوزيف بابك ؟ »

فقال مايك مصطنعا الجد ، « انه بابك دون ريب . لقد اخبرتك اني سأقودك له ، الم اقل ذلك ؟ »

وسأل الغريب وهو يضع مقبض شمسيته على ذراعه « اليس لنا ان ندخل ؟ »

ولكن بابك كان ما يزال مغلقا باب بيته . ثم قال متذمرا « لماذا اتيت به ؟ » وكان مايك من اضراب يهوذا .

وكانت عينا مايك الزرقاوان الشاحبتان تستجديان : « الا تظن انه كان سيجد الطريق بدوني ، على كل حال ؟ ولكنني ظننت انه من الافضل ان اكون موجودا هنا عندما ـ » وتوقف ، ثم اضاف بحزم اكثر ، « وعلى كل حال ، فقد جاء الى البار وسأل كيف يصل الى بيتك . يا لله ! بوسعي ان اذهب ان لم تكن ترغب في بقائي هنا !.. ولكنه لم يقم بحركة ما لينصرف .

فوضع الغريب قبعته على رأسه ، وقال وهو يصعد السلم «فلندخل» وتنحى بابك جانبا . ودخل الغريب الى البيت ، والقى عليه نظرة قصيرة ، وتردد قليلا ، ثم اتجه نحو غرفة الجلوس ، وبحث عن شيء يجلس او يتكيء عليه ، فلم يجد سوى مقعد الدراجة ، فركز عليها محفظته ، فتح قفلها ، وسحب منها وثيقة .

ثم التفت ليواجه بابك الذي دخل ببطء من الباب ، يدفعه مايك .

وبدأ الغريب حديثه قائلا : « انني يا سيد مايك من دائرة الاعانة في مقاطعة جولدسبرة . لقد تقدمت بطلب للاعانة ؟ »

فقال بابك ببطء: « لم اعد احصل على اي تأمين ضد البطالة ، ولا بد من شيء اقتات به » . ثم اضاف مؤكدا : « ولكنني لست بحاجة لنقود للاستئجار . ان بيتي لي ! »

فقال الغريب : « اعرف ذلك . »

وقال بابك : « لقد كنت ابحث عن عمل في كل مكان . وعملت في مناجم هذه المنطقة طيلة عمري ، انهم يعرفوني ، وقد وعدوني .. »

فقال الغريب : « نعم . نحن ندري . لقد بحثنا قضيتك » . وبدا على صوته بعض التعب ، أو ربما بدأ نافد الصبر قليلا « لن تكون اهلا للتقاعد الا بعد عامين ؟ » وتدخل مايك مساعدا : « ولن يحصل عليه مطلقا ان لم يجد عملا ، ولكنه سيحصل على عمل . انه قوي . وما هذا كله الا من جراء ادخالهم للالة الجديدة ، اما هو فيعمل بيده، وهم يقولون انه اكبر سنا من ان يتعلم العمل على الالة . »

فقال الغريب ثانية ، « نعم . نحن ندري . عندما نبحث قضية فاننا نعرف كل شيء عنها . » وامتدت شفتاه في ابتسامة نحيلة تنم عن الشفقة .

ولكن هذه الابتسامة جعلت بابك يتجمد . ثم قال « الكرسي ، سأحضر لك الكرسي من المطبخ . »

فابعده الغريب قائلا : « لا تتعب نفسك . ما عليك الا ان توقع هنا على هذه الورقة . وبعدئذ سنحصل لك على النقود . » ووضع علامة صليب بجوار الفراغ الذي قد يخط بابك اسمه فيه ، وسلمه الوثيقة .

واخذ بابك يقرأ الكلمات المتلاصقة ، ولكنه تركها بعد السطر الثالث او الرابع . لقد كانت الورقة مليئة بكلمات طويلة لم تكن تعني شيئا بالنسبة له .

« ما هذا يا سيد ؟ ما الذي تريدني ان اوقعه ؟ لقد سبق ووقعت طلب الاعانة ـ »

وعادت ابتسامة الغريب النحيلة للظهور . « لقد ظننت انك تعرف يا سيد بابك ، انها توكيل عقار . »

فقال بابك « نعم ؟» ومع انه لم يدرك تمام الادراك ما المقصود ، فقد استشعر الخطر على نفسه وعلى بيته .

« هذه هي القضية يا سيد بابك . نحن هنا لنساعد الذين لا يملكون شيئا ـ لا عملا ، ولا نقودا ، حتى ولا بيتا . ولكنك تملك بيتا، ان لك عقارا . ولعلك لا تريد ان تأخذ نقودا لا تستحقها ، هل تريد ذلك ؟ لعلك لا تريد ان تأخذ نقودا من اولئك الذين لا يملكون شيئا ابدا ؟ »

فقال بابك « كلا » ، وبان على وجهه جهد التفكير . « لست اريد ان آخذ نقود اي شخص اخر . انما اريد الاعانة فقط . لقد عملت طوال عمري ، الا عندما كنت عاطلا ، فعندئذ كنت آخذ اعانة . ليس بوسعكم ان تتركوني اموت جوعا ! »

وقال مايك وهو يلوي يديه : « ليس هناك من يريد ان يجعلك تموت جوعا يا بابك ! ذلك هو ما يقف من اجله هذا الرجل هنا ، الا ترى ذلك ؟ »

فقال بابك ، « بلى ، بلى ! ولكن ما الذي يريدني ان اوقعه ؟ »

« لقد سبق واخبرتك ، يا سيد بابك ـ توكيل عقار . انك تحول الى الحكومة حقك في بيتك وقطعة ارضك ، وبعدها نضيفك الى قوائم الاعانة . »

فقال بابك : « ولكن البيت بيتي ، لقد بنيته . واتفقت عليه . ولمدة عشرين عاما كنت اوفر لاجله ، ولمدة عشرين عاما قبل ذلك ـ ولكن عندئذ افلس المصرف . »

وهز الغريب كتفيه . لم يعد يبتسم . « ان حولت حقك في عقارك ، يا سيد بابك ، فمن الواضح انه لا يكون ملكا لك . وبالطبع ، فان الحكومة لن تلقي بك الى الخارج ، فاننا سندعك تعيش في بيتك فترة ما . اننا سنحتفظ به كضمان فقط ، وبذا نضمن انك ستسددنا حالما تحصل على عمل . انك مالك عقار ، وفي هذه الحالة تكون الاعانة اشبه بقرض تمنحك اياه الحكومة . الحكومة ، اي جميع دافعي الضرائب . وانت لا تريد ان يخسر دافعو الضرائب نقودهم عليك ، اتريد ذلك ؟ »

فقال بابك : « كلا ، انني اريد الاعانة فقط . انا لا اريد اعانة كتلك التي تعطونها للاخرين ، لانني املك بيتي ، فلاحاجة بي لنقود للاستئجار . »

« ولكن لا يمكننا ان نعطيك اعانة طالما انك تملك البيت ! »

لقد ارادوا ان يأخذوا بيته ، وارتجفت ركبتا بابك . انهم اخذوا منه عمله ، وهم ايضا يريدون ان يسلبوه بيته : لقد قالها اخيرا رجل من الحكومة .

وعلق الغريب ، مشفقا على بابك قليلا اذ رآه يخطو للوراء ليستند الى الحائط ، فقال : « انك لا تدرك الموقف جيدا ! اننا منصفون جدا ! كان بوسعنا ان نطلب منك ان تبيع بيتك والا تكون عبئا على دافعي الضرائب ! ولكننا لا نفعل هذا ! اننا نعطيك الاعانة ونحتفظ ببيتك الى ان يصبح لك عمل وتسددنا ! »

ولم يكن لصوت بابك لهجة ما حين قال : « وان لم احصل على عمل ؟ ما معنى ان اضحك على نفسي؟ انهم لا يستخدمون رجالا مثلي .. وما زال هناك عامان حتى احصل على تقاعدي ، ولن احصل على التقاعد ان لم اعمل باستمرار في ذينك العامين . لم احصل الا على البيت . ولم تريد ان تأخذه ؟ انها حكومة كبيرة ، فما الذي تريده بهذا البيت الصغير، اربعة جدران عارية وسقف ليس الا ...»

وغاص صوت بابك .

وخلع الغريب قبعته ، متضايقا ، ولمس شعره . « انني اسف ، يا سيد بابك فانا لا اضع القوانين . » ومد الوثيقة وكان يستعطف ،« وقع هنا »

واخذ بابك الورقة . ومزقها ، ببطء قطعا قطعا وتركها تسقط على الارض .

وارتدى الغريب قبعته . وعند الباب ، قال ، « ان اعدت النظر في موقفك ، فأعلمنا . »

ثم ذهب .

وحل الصمت بين الرجلين برهة في الغرفة الخالية . واخيرا ، قال مايك بلطف ، « لقد اخبرتك ، لو انك تمسكت بما ادخرته ... لم يكن هناك داع ليعرفوا بامره ، ولكن يا للطريقة التي حملت نقودك بها حول كرشك ! كان بوسعك ان تنال الاعانة وتضحك عليهم ! ولكنك رحت تبني بيتا ، لكي تريهم انك تملك شيئا ، فلتكن مالك عقار ! »

ولكن بابك لم يسمع . وتقلص وجهه بعمق اكثر من اي وقت مضى ، وبدا انه انطوى على نفسه كلية .

ترجمة عصام صفدي